البحوث والدراسات

تداخل المعارف مدخلًا للتخصيب الفكري

مدخل بيبليوغرافي مقارن

د. محمد همام

جامعة ابن زهر / أكادير

مركز نهوض للدراسات والنشر

NOHOUDH CENTER FOR STUDIES AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨

الفهرس:

الملخص ٣

تقديم ٤

(١) تكامل العلوم ضمن مشاريع متنوعة: مقاربات مختلفة ٤

(٢) تداخل المعارف ضمن دراسات وأبحاث في دوريات عامة أو متخصصة ١٢

خاتمة ٢٩

لائحة المصادر والمراجع ٣٠

الملخّص:

- برغم حدة النقاش المعرفي والمنهجي حول قضية تداخل المعارف في الفكر العربي القديم، وما نتج عن ذلك من أفكار وتصورات متضاربة، خاصة بين رموز المعرفة الإسلامية، في الفلسفيات والشرعيات؛ إلا إن الخوض في هذا المبحث المعرفي الحيوي، أي تداخل المعارف، ضمر في الفكر العربي المعاصر.

- وعليه، إذا استثنينا المجهود النظري الذي قدمه طه عبد الرحمن، فلا نكاد نجد في الأبحاث والدراسات المعرفية القريبة المعاصرة إلا إشارات متفرقة هنا وهناك، حاولنا تجميعها بحسب تسلسلها الزمني، وأماكن وجودها، بين كتب وأبحاث ودراسات في دوريات متخصصة أو متنوعة، أو عرض لكتب في الموضوع، مما ساهم في التخصيب الفكري، وتوسيع آفاق الاجتهاد الفقهي، وتنمية التنوع الثقافي المثمر بين مختلف المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية والحقول المعرفية.

تقديم:

برغم حدة النقاش المعرفي والمنهجي حول قضية تداخل المعارف في الفكر العربي القديم، وما نتج عن ذلك من أفكار وتصورات متضاربة، خاصة بين رموز المعرفة الإسلامية، في الفلسفيات والشرعيات؛ إلا إن الخوض في هذا المبحث المعرفي الحيوي، أي تداخل المعارف، ضمر في الفكر العربي المعاصر.

وعليه، إذا استثنينا المجهود النظري الذي قدمه طه عبد الرحمن، فلا نكاد نجد في الأبحاث والدراسات المعرفية القريبة المعاصرة إلا إشارات متفرقة هنا وهناك، حاولنا تجميعها بحسب تسلسلها الزمني، وأماكن وجودها، بين كتب وأبحاث ودراسات في دوريات متخصصة أو متنوعة، أو عرض لكتب في الموضوع، مما ساهم في التخصيب الفكري، وتوسيع آفاق الاجتهاد الفقهي، وتنمية التنوع الثقافي المثمر بين مختلف المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية والحقول المعرفية.

(1) تكامل العلوم ضمن مشاريع متنوعة: مقاربات مختلفة:

وردت إشارات إلى قضايا تداخل المعارف في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لدى كل من حسن حنفي ومحمد عابد الجابري، وإن برُؤًى وتصورات مختلفة.

فحسن حنفي، يثبت اعتراضاته ورفضه العنيف لأي ارتباط أو تداخل بين المعارف الإسلامية والمعارف الأجنبية، بدعوى أن المناهج الأصولية مرتبطة أشد الارتباط باللغة العربية، كما أن القياس الفقهي ومباحثه لا صلة له بالبرهان الأرسطي، إنما هو منتج خاص يقوم على التجربة وقياس العلة، عكس القياس الأرسطي الصوري، كما أن منطق الأحكام الشرعية ليس له ما يرادفه على الإطلاق في المنطق اليوناني الذي هو، بنظره، منطق نظري خالص لا شأن له بالفعل الإنساني، كما أن إثارة الجدل حول هذا التداخل هو من فعل المستشرقين[1]!!

ولكن برغم هذه الاعتراضات، وجد حنفي نفسه مكرهًا على التساؤل حائرًا حول التداخلات المعرفية في تكوين العالم المسلم والفقيه المسلم في التراث القديم؛ فمثلًا، يتساءل حنفي: ما هو مذهب الغزالي؟ هل هو التصوف أم الفلسفة أم المنطق أم الأخلاق أم السحر والطلسمات؟ وما

(١) ينظر: **التراث والتجديد**، حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م: ٩٣. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٠م عن المركز العربي للبحث والنشر.

هو مذهب ابن سينا؟ هل هو الفلسفة أم التصوف أم العلم؟ وما هو مذهب ابن رشد؟ هل هو الفقه أم الكلام أم الفلسفة أم العلم؟

فهناك إذن، بنظر حنفي، تيارات فكرية تتخلل العالم، مما دفع المفكرين إلى التكرار والاستعارة بعضهم من البعض[٢].

فالتداخل المعرفي، إذن، حاصل في طبيعة تكوين علماء المسلمين، لكن الذي غفل عنه حنفي هو أن هذا التداخل متأصل في المعرفة الإسلامية في ذاتها، مما يفرض على العالم أن يكون ذا تكوين تداخلي، ولعل هذا ما جعل حنفي نفسه يقر بما سماه بالترابط بين المذهب الفقهي والموقف العلمي والرؤية التصورية، من خلال نماذج لعلماء كابن الهيثم، وقطاعات معرفية كالعلوم الطبيعية والرياضيات[٣].

ولكن هذا لم يمنع حنفي من أن يكون وفيًّا لنظرة تجزيئية ضيقة مستقاة من خلفيات فكرية غير تداخلية؛ فوضع فصلًا تأمًّا بين العلوم الدينية والعلوم الإنسانية؛ كالجغرافيا، والاجتماع، والأخلاق، والمنطق، والقانون.

ولكنه يعود مرة أخرى للإقرار بتداخل هذه المعارف فيما بينها؛ فالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع تدخل في الفلسفة، وعلم السياسة وعلم الاقتصاد يدخلان في الفقه، وعلم الجمال أدخل في الأدب وفنون الشعر والنثر والخطابة، كما أن هذه العلوم جميعًا، مرتبطة بالوحي باعتباره علما كليًّا يشمل هذه العلوم كلها[٤].

فسؤال التداخل كان حاضرًا في وعي حسن حنفي، لكن كان يكتنفه كثيرٌ من الغموض والاضطراب، ولم يستطع، بنظرنا، تبين الخلفيات المعرفية والمنهجية، لعملية تداخل المعارف الإسلامية، ودور هذا التداخل والتكامل في التخصيب الفكري والفقهي.

وأما **الجابري**، فقد أشار إلى قضايا تداخل المعارف الإسلامية في مشروعه النقدي "نقد العقل العربي"، خصوصًا في جزأيه الأول والثاني؛ فقد انتقد الجابري النظرة التجزيئية لتاريخ الفكر العربي؛ واعتبر أن التاريخ الثقافي العربي كما نقرأه اليوم في الكتب والمؤسسات هو تاريخ مجزأ؛

(٢) **التراث والتجديد:** ٧٧، ١٧٣.

(٣) **نفسه:** ١٦٣-١٦٤.

(٤) **نفسه:** ١٦٥.

تاريخ "فرق" و"طبقات" و"مذاهب" مستقل بعضها عن البعض.في التصورات والأعمال والمقالات، «تاريخ الاختلاف في الرأي وليس تاريخ بناء الرأي».

ونظرتنا التجزيئية إلى هذا التاريخ تُفقدنا، من وجهة نظر الجابري، التقاطَ الكلِّ الذي يحمل فعلًا الوحدةَ الثقافية العربية؛ ذلك أنه وراء تاريخ الاختلاف والتعدد والصراع والانفصال يثوي تاريخ الوحدة والتكامل والاتصال؛ فليس التاريخ العربي الثقافي العربي، ما هو سائد اليوم؛ أي تاريخ علوم وفنون من المعرفة منفصلة بعضها عن البعض، ويؤكد الجابري نظرته الكلية بقوله: «نحن لسنا ضد التخصص، ولكن يجب أن نراعي داخل دائرة التخصص ذاتها الترابط بين الاختصاصات في ثقافة الماضي؛ فالفقيه كان نحويًّا والنحوي فقيهًا، وربما نجدهما معًا من المتكلمين أو البلاغيين.وكما عرف تاريخنا الثقافي فقهاءَ علماء في الرياضيات أو الفلك أو النبات، عرف كذلك فقهاء فلاسفة كالغزالي وابن حزم وفلاسفة فقهاء كابن رشد... وهكذا فوراء التعدد والتنوع في ثقافتنا الماضية يقوم التكامل والوحدة»[٥].

هذا التكامل هو الذي دفع الجابري إلى النظر إلى الموروث القديم نظرةً كلية غير تجزيئية، وتعتمد هذه، بنظره، منهج تفكيك الموروث القديم إلى أجزاء ورد كل جزء منها إلى أصله. فهذا المنهج التجزيئي، ذو طبيعة فيلولوجية وخلفية استشراقية. والجابري لا يأخذ بهذا المنهج؛ ليس فقط لأنه معرض للنقد علميًّا، بل أيضًا لأنه لا يستجيب لاهتماماتنا نحن العرب المعاصرين، ولا لنوع الوعي الذي نريد أن يكون لنا عن تراثنا[٦].

فالعقل العربي، بنظر الجابري، تشكل من ترسُّخ طرق في التفكير في الذهن العربي تقوم على الترابط والتفاعل مع مفاهيم عصره ومجاله التداولي[٧]. وهذا ما أضفى على الثقافة العربية طابعًا تداخليًّا وترابطيًّا، وأصبح من اللازم النظر إليها في ضوء هذه المعطيات المنهجية والمعرفية والتاريخية؛ أي النظر إلى فروع هذه الثقافة كغرف في قصر واحد، متصلة مترابطة، يقود بعضها إلى بعض عبر أبواب ونوافذ، وليس كخيام منعزلة مستقلة منصوبة في ساحة غير ذات سور ولا سياج، كما هو حال النظرة السائدة[٨].

---

(٥) **نقد العقل العربي: ١ ـ تكوين العقل العربي**، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، أيلول ١٩٩١م:٤٧.

(٦) **نفسه:** ١٨٧.

(٧) ينظر: **نفسه:** ٧١.

(٨) **نفسه:** ٦.

هـذا الوضـع الترابطـي والتداخـلي للمعرفـة الإسـلامية هـو الـذي ولَّـد في وعـي الإنسـان العـربي، بنظـر الجابـري، شـكلًا تداخليًّـا آخـر، ذا طبيعـة سـلبية، عـلى قـدرة العـربي عـلى التحليـل والنقـد والتعامـل مـع المعرفـة والتاريـخ. هـذا الشـكل هـو "تداخـل الأزمنـة الثقافيـة"؛ أي أن المثقـف العـربي منـذ القديـم، وبالضبـط منـذ عـصر التدويـن، مـا زال يسـتهلك معـارفَ قديمـة عـلى أسـاس أنهـا جديـدة، سـواء أكانـت أصيلـة أم دخيلـة. ومـا يـزال إلى اليـوم، يعيـش في وعيـه صراع المـاضي متداخـلًا مـع أنـواع الصراعـات الأخـرى التـي يشـهدها حـاضره. وبفعـل "تداخـل الأزمنـة الثقافيـة" في فكـر المثقـف العـربي»، تولَّـدت ظواهـر سـلبية مثـل ظاهـرة "المثقفـين الرحـل" الذيـن يرحلـون عـبر الزمـن الثقـافي، بغـير ضوابـط ولا مبـادئ ولا مناهـج[٩].

وتداخـل الأزمنـة الثقافيـة أضـاف لـه في وعيـه العـربي، شـكلًا تداخليًّـا سـلبيًّا آخـر هـو تداخـل الزمـان والمـكان في وعينـا التاريخـي والثقـافي؛ إذ ارتبـط التاريـخ الثقـافي العـربي بتاريـخ الكوفـة والبصرة ودمشـق وبغـداد والقاهـرة والقـيروان وفـاس وإشـبيلية وقرطبـة.. أي جـزر منفصلـة بعضهـا عـن البعـض في الزمـان انفصالهـا في المـكان؛ ذلـك أنهـا تحـضر في الوعـي لا عـلى التعاقـب ولا عـلى التزامـن، أي حضـورًا تراكميًّـا يقـوم عـلى الفـوضى، ويفتقـد إلى النظـام[١٠].

وحاول الجابري في مشروعه النقدي تجاوزَ النظرة إلى المعرفة الإسلامية باعتبارها أجزاءً مفككة. وقدَّم رؤيـة في التداخلالمعـرفي، لكنهـا لم تكـن مـزودة، بنظرنـا، بما يلـزم من الاتسـاق والإحـكام، فتنكبت المنهج التداخـلي النافـع، وانتهـت إلى التجـزيء الضـار برغم اسـتنادها على مفـردات التداخل والتكامـل، وكونها مدفوعـةً بحساسـية مـن مناهـج المسـتشرقين ذات المنحـى التفكيـكي. ولكـن هذا لـن يمنعنا مـن العرض الموجـز لملامـح النظـرة التداخليـة للجابـري، واختبـار تطبيقاتهـا عنـده في مشروعـه النقـدي التحليلي، لما تحملـه مـن عنـاصر إيجابيـة، ولمـا يقـوم بـه صاحبها مـن دور ريـادي على صعيـد الفكر العـربي المعاصر.

فبرغـم أن الجابـري قـد حلَّـل النظـم المعرفيـة الثلاثـة، البيـان والعرفـان والبرهـان، كلا عـلى حـدة، فإنـه وإن لم يلـغ علاقاتهـا التداخليـة، إلا إنـه لم يتعـرض لعلاقـات التداخـل تلـك طـوال مرحلـة تكونهـا واسـتكمال نضجهـا. كـما إنـه اعتـبر ما كان بينهـا من تأثير متبـادل أو احتـكاك أو اصطدام، خـلال مرحلة التكويـن، إن هـو إلا جـزء مـن عمليـة التكويـن ذاتهـا، وهـو مـا يحـدث دائمًـا في كافـة المجـالات[١١].

(٩) ينظر: **نفسه:** ١٨٧.

(١٠) **نفسه:** ٤٧.

(١١) **نقد العقل العربي: ٢ ـ بنية العقل العربي**، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م:٤٣٧.

فالدراسات البيانية والبلاغية، مثلًا، المنتمية إلى النظام المعرفي البياني، قد قطعت أشواطًا من التطور، على مستوى التنظير والتطبيق، خارجَ دائرة "البيانيين" و"البلاغيين" الضيقة[١٢].

والأمر نفسه يمكن تعميمه على دراسات وأبحاث في قطاعات معرفية فرعية متعددة، والتي تنتمي إلى الأنظمة المعرفية الأخرى، عرفانية كانت أو برهانية؛ فالجابري كان يقر، من حين لآخر، بالعلاقات التداخلية المكثفة بين هذه الأنظمة المعرفية إلى درجة أن ألبس الواحد منها الآخر، أو فُسِّر أحدها بواسطة الآخر[١٣]. لكن إلى درجة الاصطدام والعداء المستحكم بين رواد هذه الأنظمة؛ مثل ما حدث بين الفقهاء والمتصوفة، وهذا ما ينقل هذا التداخلَ إلى تعارض وتباعد بين هذه الأنظمة[١٤].

وهذا التداخل الذي تحوَّل إلى تعارض هو ما سيزيد في غموض الرؤية التداخلية عند الجابري، وسيعتبر الأمرَ مجرد أزمة أسس، تحتاج إلى إعادة تأسيس من جديد، خصوصًا في ما يتعلق بالنظام البياني[١٥]. هذا النظام الذي أزعجت تداخلاته المعقدة الجابري؛ تلك التداخلات التي اشتدت في مراحل التقنين الأولى، لما كان اللغوي متكلمًا والمتكلم نحويًّا والفقيه لغويًّا متكلمًا، وكل أبحاثهم ومناقشاتهم كان يستقطبها مركزُ اهتمام واحد هو النص الديني الأساس: القرآن الكريم[١٦].

فهم ينتمون إلى حقلٍ معرفيٍّ واحدٍ يؤسسه نظامٌ معرفي واحد هو النظام المعرفي البياني، وساهموا جميعًا، في صياغة نظريات في البيان، فقهية أو نحوية أو بلاغية أو كلامية، متكاملة ومتداخلة، تصف أو تحلل جوانب أو مستويات من العالم المعرفي الذي ينتمون إليه؛ عالم "البيان"[١٧].وهو الساحة الأكثر اتساعًا وأصالة في الثقافة العربية الإسلامية، هذه الساحة التي سيتحول التداخلُ فيها إلى مسرح لصراع المقولات واختلاط المفاهيم[١٨].

---

(١٢) ينظر: **نفسه:** ٢٨١.

(١٣) **تكوين العقل العربي:** ٢١٣.

(١٤) **نفسه:** ٢١٤.

(١٥) ينظر: **بنية العقل العربي:** ٥٠٢.

(١٦) **نفسه:** ١٠.

(١٧) **نفسه:** ٩.

(١٨) **نفسه:** ٥٠٥.

واضح إذن أن الجابري متضايقٌ من تداخلات النظام البياني؛ فإذا كان تداخلُه مع نظام خارجي يتحوَّل إلى اصطدام، وإن كان تداخلًا داخليًّا، بين مكوناته وعناصره، يصبح اختلاطًا للمفاهيم! وهذا ما يطرح الشكوك حول أصالة رؤية الجابري التداخلية! خصوصًا وأنه سيستبدل التداخل، كآلية تحليلية، في إحدى محطات مشروعه النقدي، بالتناسب، عند دراسته مثلًا العلاقة بين المنطق والنحو[١٩]، وهما ينتميان إلى نظامين معرفيين مختلفين؛ فالتداخل بين الأنظمة المعرفية، باعتباره ميزة المعرفة الإسلامية، وهذا ما أقره الجابري، كما ذكرنا، كل هذا سيصبح تصادمًا بين بنيات فكرية؛ تصادم ثنائي وتصادم عام.

واعتبر الجابري أن الغزالي هو أحسنُ مثالٍ مشخصٍ لذلك التصادم، من خلال مشروعه التداخلي، والذي ليس إلا "أزمة أسس" في الفكر العربي؛ الأزمة الراجعة إلى تصادم وتداخل النظم المعرفية المتنافسة داخله[٢٠]. تداخل ينشد المغايرة، ويعمق الخلاف، ويميل نحو الانغلاق[٢١].

وأدى هذا التصور بالجابري إلى تكريس النظرة التجزيئية، مما حذر منه في أول مشروعه، وانتهى إلى أن الأنظمة المعرفية الثلاثة: البيان، والعرفان، والبرهان، عبارة عن قطاعات منفصلة يشكل كل واحد منها حقلًا معرفيًّا متميزًا، أي عالمًا من التصورات والمعارف يكفي نفسه بنفسه، أو على الأقل يقدم نفسه كذلك، ويدخل في علاقة منافسة وصدام مع عوالم معرفية أخرى[٢٢].

وهذا ما يعد، بنظرنا، **انقلابًا من الجابري على مقدمته النظرية والمنهجية**، مما ذكرناه سابقًا. فنحن نقر أنه كان يريد الانطلاق من وعي تداخلي ميز المعرفة الإسلامية، لكن عملية تقسيم العقل العربي إلى نظم معرفية ثلاثة، والاستغراق في مناقشة مضامين هذه النظم، واستحضار الهموم المعرفية المعاصرة، لم يسمح، بنظرنا، للجابري بتعميق البحث الإبستمولوجي والمنهجي في مشروعه الطموح.

ولذلك اقتصر التداخلُ عنده، على ما أسماه بـ"**التداخل التكويني**"، أي الذي يحدث في مرحلة التكوين بوصفه عنصرًا من العناصر التي تُغني الكيان المتكون وتستحثه على التعرُّف على نفسه، من خلال ردود الفعل التي تصدر عنه إزاءَ الوافد المقبول أو الدخيل المرفوض.

(١٩) **نفسه**: ٤٣٧.

(٢٠) **تكوين العقل العربي**: ٤٩٩.

(٢١) **بنية العقل العربي**: ٤٩٩.

(٢٢) **نفسه**: ٥٧٣.

وهـذا التداخـل هـو الشـق الإيجـابي مـن تصـوره التداخـلي، وهـو مـا اهتـم بـه الجابـري في جزئِـه الأول مـن مشروعـه النقـدي. أمـا النـوع الآخـر مـن التداخـل، وهـو الـذي نقصـده نحـن في بحثنـا، فيسـميه الجابـري بـ**"التداخـل التلفيقـي"**، وهـو عنـده التداخـل الـذي يحصـل بـين بنيـات، لا بوصفهـا بنيـات مسـتقلة بنفسـها محصنـة بقدرتهـا عـلى اسـتعادة توازنهـا الـذاتي كلـما دعـت الحاجـة إلى ذلـك، بـل بوصفهـا بنيـاتٍ فقـدت هـذه القـدرة وصـارت مفككـة.

ومـن هنـا يخلـص الجابـري إلى أن هـذا النـوع مـن التداخـل ليـس إلا اجتـماع أجـزاءٍ، أو قطـعٍ كاملـة، مـع بنيـات مختلفـة لا تشـكل كُلًّا واحًـدا ولا تخضـع لمنطـق داخـلي. تقـوم علاقاتهـا عـلى التجـاور أو التنافـر، وكل منهـا يحتفـظ بخصائصـه الذاتيـة[٢٣].

وينسب الجابري هذا التداخل التلفيقي إلى طريقة المتأخرين في مرحلة تمام نضجها واكتمالها، مثل التداخل الذي حصل بين البيان والبرهان؛ أي بين مفاهيم علم الكلام ومسائله ومفاهيم الفلسفة ومسائلها[٢٤].

وهـذا مـا أحـدث بنظـر الجابريأزمـةَ أُسـس في الثقافـة العربيـة، كان أشـهرَ رموزِهـا أبـو حامـد الغـزالي، والـذي حـاول ترتيـب العلاقـات بـين النظـم المعرفيـة الثلاثـة مسـتندًا إلى موجهـات مـن العوامـل الموضوعيـة والذاتيـة التـي عاشـها[٢٥].

والغـزالي، بنظـر الجابـري، هـو "ملتقـى طـرق"، انتهـت إليـه النظـم المعرفيـة الثلاثـة، فالتقـت عنـده التقـاءً بنيويًّـا، أي صداميًّـا؛ فنتـج مـا سـماه الجابـري بـ"التداخـل التلفيقي".

هـذا التداخـل الـذي كان ضحيتـه "البرهـان"، لأن "البرهـان" كـما صاغـه أرسـطو، بنظـر الجابـري، ذو طبيعـة نسـقية يكفـي نفسـه بنفسـه ولا يقبـل الانفتـاح، وإذا انفتـح تعـرض لخطـر التفـكك. وهـذا مـا حصـل فعـلًا؛ فالثغـرة التـي أحدثهـا فيـه الفـارابي بتبنـي جوانـب مـن الهرمسـية، سرعـان مـا اتسـعت مـع ابـن سـينا لتصبـح النتيجـةُ هـي "الضربـة القاضيـة" التـي وجههـا الغـزاليُّ إلى الفلسـفة؛ الفلسـفة كـما أرادهـا ابـنُ سـينا منظومـة تلفيقيـة تجمـع بـين المشـائية والهرمسـية وعلـم الـكلام والتصـوف، ولـن تقـوم قائمتُهـا إلا مـع ابـن رشـد، في شـكل برهـاني أرسـطي خالـص[٢٦]! أو

(٢٣) ينظر: **بنية العقل العربي**: ٥٠٠.

(٢٤) **نفسه**: ٥١١.

(٢٥) ينظر: **تكوين العقل العربي**: ٢٨٢.

(٢٦) ينظر: **بنية العقل العربي**: ٥٠١.

ما أسماه الجابري لحظة التجديد كنقيض بنيوي وتاريخي للحظة الأزمة في الثقافة العربية الإسلامية التي مثلها الغزالي[٢٧]، والذي كان مشروعه التداخلي، بنظر الجابري، مرحلةً أخرى في الفكر العربي الإسلامي، بالمشرق خاصة، مرحلة التراجع والانحطاط التي سرعان ما ستعمُّ باقي أرجاء الوطن العربي[٢٨].

والخلاصة أن الجابري، بنظرنا، قد ابتدأ بهاجسِ رؤية تداخلية، بين القطاعات المعرفية، في الثقافة العربية، لكن ضغط العتاد المنهجي الذي استثمره في بحثه، ولا سيما البنيوية، وجهه وجهةً معاكسة لرؤاه ومقدماته، فكان ينبغي ضبطُ العلاقات التداخلية بين القطاعات المعرفية الإسلامية، وسبل تحقيق تعالق مثمر، لكنه انتهى إلى التجزيء وفصل كل قطاع عن الآخر، بل نخشى أن نقول: تحامل على قطاعات لفائدة أخرى! إلى درجة تشكك في مصداقية الرؤية التداخلية في تصور الجابري! لأن أشكال التحليل والنقد والمقارنة التي عقدها الجابريُّ طيلة مشروعه الضخم، بناء على آليات الترتيب والنظام، وتقديم ما يجب أن يتأخر، وتأخير ما يجب أن يتقدم، لم يكن هذا الأمر، في لحظات كثيرة، تحت ضغط موضوع الخطاب أو طبيعة الفكر الذي لا تستطيع التعبير عن موضوعه إلا عبر الزمن، أي بالتتابع[٢٩]، ولكن خلاصات الجابري تُنبئ برؤية تفاضلية بين النظم المعرفية الثلاثة، ورغبة في إبراز نظام على حساب آخر، خارج أي إطار تداخلي وتعاوني نافع بين الأنظمة جميعًا، أو في إطار من الموضوعية، والالتزام المنهجي الصارم.

ولكن يبقى مشروع الجابري النقدي مفيدًا في ما يتعلق بموضوعنا حول تكامل العلوم وتداخل المعارف الإسلامية، بغض النظر عن خلاصاته، لما أثاره من نقاشٍ حول الموضوع، وتقييم لمجهود التداخل الذي قدمه الغزالي. كما أن مشروع الجابري سيكون المدخلَ النقدي الذي انطلق منه طه عبد الرحمن لتأسيس نظريته التداخلية، كما سيكون محفزًا لكثير من الدراسات المعاصرة للإشارة إلى أهمية قضايا تداخل المعارف والعلاقات بين العلوم، مما سنعرضه الآن في خلاصات مركزة.

(٢٧) **نفسه**: ٥٠٢.

(٢٨) **نفسه**: ٥٠٣.

(٢٩) ينظر: **تكوين العقل العربي**: ٢٥٣.

(٢) تداخل المعارف ضمن دراسات وأبحاث في دوريات عامة أو متخصصة:

سنعمل في هذه الفقرة على تقديم خلاصات مركزة للأبحاث والدراسات التي استطعنا الاطلاع عليها، والتي تحدثت بشكل مباشر في قضايا التداخل المعرفي، وأبعاده المعرفية والمنهجية، في مستويات متعددة. وقد اعتمدنا التسلسل الزمني في إيرادها وتصنيفها.

ففي دراسة بعنوان "انتقال النظريات"[٣٠] ذكر الباحث إدوارد سعيد أن حركة الأفكار والنظريات تعرف تنقلًا على غرار الناس وكذا مدارس النقد. وهذه الحركة من التنقل هي التي تغذي حياةَ الفكر والثقافة، كما أنها تكون حركةً واعية ومعترفًا بها، وقد تكون عكس ذلك، أي حركة غير واعية، أو تكون على شكل اقتباس خلَّاق، أو انتحال، أو استيلاء.

كما تحدث إدوارد سعيد عن معوقات هذا الانتقال في كل مستوياته. وحدَّد لهذا الانتقال ثلاثَ مراحل أو أربعًا؛ وهي: **نقطة المنشأ، والمسافة التي يتم اجتيازها، وشروط القبول، والمرحلة الأخيرة هي تحويل الفكرة التي جرى استيعابها، أو إدماجها كليًّا من خلال استعمالاتها الجديدة، وعبر موقعها الجديد في زمان ومكان جديدين (ص. ١٣).**

وذكر إدوارد سعيد أن الحقول المعرفية لا تملك حدودًا حصرية (ص.١٦). وقدَّم نماذج من النظريات والأفكار التي تنقلت في بيئات مختلفة، وتكلم عن التداخل المعرفي بشكل عام، تحت اسم **"التداخل النصوصي اللامحدود"** (ص. ٢٣). وذكر ما تتعرض له الأفكار والمعارف من تحوير وتحويل واختزال وتدوين (ص. ٢٥).

أما الباحث محمد العمري، فقد نبه في دراسة بعنوان "بنية التوازن والتفاعل: قراءة في البلاغة العربية"[٣١]، إلى أن التعاملَ مع البلاغة القديمة ضمن قراءة حديثة للشعر القديم، كان بغرض التخلص من قراءة التراث بطريقة تجزيئية أو انتقائية لتداخل المعرفة عند القدماء (ص. ١٩).

وفي بحث بعنوان "الخطاب الأدبي ولسانيات النص"[٣٢]، تحدث الباحث منذر عياشي عن تداخل اللسانيات مع الدراسة الأدبية، وإن ادعى أن اللسانيات قد فصلت الدرس الأدبي عن

(٣٠) «انتقال النظريات»، إدوارد سعيد، ترجمة أسعد رزوق، مجلة **الكرمل**، العدد التاسع، ١٩٨٣م.

(٣١) «بنية التوازن والتقابل: قراءة في البلاغة العربية»، محمد العمري، مجلة **دراسات أدبية ولسانية**، العدد السادس، ربيع ١٩٨٧م: ١٨-٣٩.

(٣٢) «الخطاب الأدبي ولسانيات النص»، منذر عياشي، مجلة **دراسات أدبية ولسانية**، العدد السابق **نفسه**: ٤٠-٥٧.

تخصصات أخرى، اعتمادًا على رأي لجاكوبسون، هذه التخصصات التي كانت عبارةً عن حقول معرفية متعددة؛ كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتاريخ، والأنثروبولوجيا، لكن الباحث عياشي أقرَّ في خاتمة بحثه بأن تطوّر عمليات تحليل النص الأدبي تمرُّ عبر تلقيحه بآليات ومناهج الدرس اللساني، في إطار من الدراسة العلمية لبنية النص ونظامه. (ص. ٥٧).

وساهمت مجلة "المناظرة" في فتح النقاش المعرفي والمنهجي، حول قضايا التداخل المعرفي؛ ففي افتتاحية العدد الأول، بعنوان "في جوهر الفكر الفلسفي"[٣٣]، ذكر الباحث الطاهر وعزيز، مدير المجلة، أن الفكر الفلسفي يقوم على انتشار مفاهيم وتوظيفها في الفهم والتفسير، وعلى تداول مناهج وأساليب في التفلسف وتبليغه.

ولا يقتصر استعمال هذه الأدوات الفلسفية على المشتغلين بالفلسفة، وإنما يشاركهم فيه مختلف الدارسين من الميادين الفكرية الأخرى. هذه الميادين التي تمدُّ الفيلسوف، من جانبها، بمفاهيم ومناهج لا تلبث أن تصبح من جوهر فكره الفلسفي. (ص. ٧).

وفي دراسة بالعدد نفسه، بعنوان "ملاحظات حول إشكالية المصطلح اللغوي في الخلاف الكلامي"[٣٤]، ركز الباحث عبد المجيد الصغيّر على التداخل بين اللغويات وعلم الكلام، وأثبت أن أغلب الخلافات الكلامية كانت بسبب الاختلاف الأصلي في التصورات اللغوية، لما للمصطلح اللغوي من دور محوري في صياغة الأصل الكلامي.

وفي دراسة بعدد آخر، بعنوان "دور المنطق في بناء النظرية الفيزيائية"[٣٥]، تحدث الباحثُ عبد السلام بن ميس عن "المنطق الفيزيائي" باعتباره مبحثًا تداخليًّا جديدًا، أثناء دراسته المعطى الصوري في علاقته بالمعطى التجريبي ودورهما معًا في تشكيل بنية النظرية الفيزيائية.كما أشار إلى قصور المنطق الكلاسيكي في تناوله لكل المعارف الفيزيائية الممكنة. (ص. ٧٦).

هذا القصور هو الذي دفع إلى ظهور محاولات جديدة لتجاوز قصور المنطق الفيزيائي ذاته، وبناء مبحث تداخلي جديد هو:**"النظرية العامة لميتودولوجيا العلم"**، وهو مبحث يدرس

---

(٣٣) «في جوهر الفكر الفلسفي»، الطاهر واعزيز، مجلة **المناظرة**، السنة الأولى، العدد الأول، شوال ١٤٠٩هـ/ يونيو ١٩٨٩م.

(٣٤) «ملاحظات حول إشكالية المصطلح اللغوي في الخلاف الكلامي»، عبد المجيد الصغيّر، مجلة **المناظرة**، العدد السابق **نفسه**: ٩٧-١١١.

(٣٥) «دور المنطق في بناء النظرية الفيزيائية»، عبد السلام بن ميس، مجلة **المناظرة**، السنة الثانية، العدد الخامس، ذو الحجة ١٤١٢ هـ/ يونيو ١٩٩٢ م: ٦٥-٨٣.

الخواص المشتركة بين مختلف النظريات العلمية؛ من حيث ديناميكيَّتُها وليس من حيث بنيتها. وهو مبحث لا يزال قيد التشكل. (ص. ٨٢).

وعقدت بجامعة فاس ندوةٌ دوليَّةٌ في موضوع **الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية**، شارك فيها باحثون من تخصصات معرفية مختلفة، وقدمت فيها أبحاث علمية كثيرة. وعبر عشرات الأبحاث التي قدمت للندوة لم نظفر إلا بدراستين مما يدخل في موضوعنا، أي الإشارة إلى قضايا تداخل المعارف وتنقلها وتبادلها بين الحقول؛ الأولى بعنوان "بديع القرآن ومصطلحاته: تنقيح وتجديد في الترتيب"[٣٦]، تحدث فيها الباحث أحمد أبو زيد عن حركة انتقال البديع بين البحوث الإعجازية والبحوث البلاغية والأدبية والنقدية (ص. ٣٧٤)، وتكلم كذلك عما اعترى التأليف في باب البديع من تداخل وتضخم في المصطلحات، واستعان بتحليل ابن البناء المراكشي في "روضه" لظاهرة التداخل في أقسام البديع (ص. ٣٧٦).ويبرز في هذه الدراسة أن التداخل يعني بالضرورة الاضطرابَ والتضاربَ. (ص. ٣٧٧).

والدراسة الثانية بعنوان "مصطلح اللفظ عند الأصوليين"[٣٧]، أشار فيها الباحث عبد الحميد العلمي إشاراتٍ خفيفةً إلى تألق الأصوليين في مجال الدراسات اللغوية، سواء من الوجهة المصطلحية أو المعجمية أو السياقية أو الدلالية، مما يبرز تكوينهم المعرفي بطابعه التداخلي. (ص. ٥٠٧).

وبرزت مجموعات للبحث في جامعة محمد الخامس، تجمع بين باحثين في تخصصات معرفية مختلفة، ويجمعها، من الوجهة المنهجية، هم البحث التداخلي، وإن كانت مجهوداتها ما زالت في بدايتها.

وكان التطرق لقضايا التداخل المعرفي، كآلية تفسيرية ناجعة لمسار العلوم وتطورها، محدودًا إلاَّ من دراسات مباشرة في الموضوع.

ففي دراسة بعنوان "تاريخ العلوم، من إعادة بناء إلى أخرى"[٣٨]، تحدث الباحث **بناصر البعزاتي**، وقد وجدناه من أكثر الباحثين اهتمامًا بقضايا التداخل المعرفي، عن دور البحث

---

(٣٦) «بديع القرآن ومصطلحاته: تنقيح وتجديد في الترتيب»، أحمد أبو زيد، ضمن: ندوة **الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية**، ندوة انعقدت أعمالها أيام ٨-٩-١٠ جمادى الثانية ١٤١٤ هـ/ ٢٣-٢٤-٢٥ نوفمبر ١٩٩٣ م، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، دون تاريخ: ١/ ٣٧١-٣٧٩.

(٣٧) «مصطلح اللفظ عند الأصوليين»، عبد الحميد العلمي، ضمن أعمال ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية: ٢/ ٥٠٥-٥١٧.

(٣٨) «تاريخ العلوم، من إعادة بناء إلى أخرى»، بناصر البعزاتي، ضمن: **كيف يؤرخ للعلم؟**، تنسيق سالم يفوت، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٥٨، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

التاريخي في كشف تفاعل المفاهيم والقيم. (ص. ٩). وعرض لنظريات في العلم حول التاريخ والاجتماع والإبستمولوجيا، ليخلص إلى أن تاريخ العلم مرتبطٌ بتفاصيل الحياة الاجتماعية والثقافية، والآليات المنطقية والأسلوبية، والالتزامات الفلسفية والعقدية. فكل ذلك له ارتباط وثيق بالنشاط المفاهيمي العلمي. (ص. ٢٥).

وفي دراسة أخرى بعنوان "حول البداية التاريخية للعلم"[٣٩]، نقد الباحث البعزاتي الذين لا يهتمون بقضايا تداخل المعارف، وتلاقح الأفكار وتفاعلها في بناء النظريات والأنساق في تاريخ العلم. (ص. ١٢). وكانت دراسته حول **"مفاصل التفاعل بين المعارف"**[٤٠]أعمقَ ما قدمه حول تداخل المعارف؛ إذ ابتدأ بالحديث عن الترابط الوثيق بين المعارف والأفكار، الذي حدث في التاريخ البشري، حتى إن وتيرةَ تطور الأفكار والفنون والتقنيات متناسبة مع درجة التفاعل والتداخل فيما بينها. (ص. ٦٠).

وأسس الباحث البعزاتي لتداخل المعارف وتفاعلها بناء على مبادئ محددة هي: تناغم الكون، ووحدة الآليات العقلية، والنسيج القيمي للناس بمكوناته العقدية والجمالية والأيديولوجية.

كما ذكر أن التفاعل والتداخل تعبير عن انفتاحية المعرفة البشرية، وأن أي محاولة لإغلاق المذاهب والعلوم بعضها في وجه البعض الآخر، ليست إلا مناهضة للتاريخ الفعلي للأفكار، وإعاقة للابتكار بصفة عامة. (ص. ٧٣).

وخلص في الأخير إلى ملاحظة مهمة وهي أن تاريخَ الأفكار عرف فترات من التفاعل الكثيف المثمر، كما عرف فترات من ضعف ذلك التفاعل بين الميادين العلمية والحقول المعرفية. وفي دراسة أخرى بعنوان "مفهوم الإبدال"[٤١]، أثار الباحث البعزاتي، على عادته في الاهتمام بقضايا التداخل المعرفي، في نقطة بعنوان **"الترابط المفهومي"**، أثار أن الأفكار ليست أحكامًا منعزلةً بعضها عن بعض، وإنما تندمج فيما بينها، بحكم توقف اللاحق منها على السابق، وبحكم سريان التداعيات وتدفقها العضوي المسترسل، لكي تكوِّن أنساقًا منسجمة قليلًا أو كثيرًا.

---

(٣٩) «حول البداية التاريخية للعلم»، بناصر البعزاتي، ضمن: **التحقيب، التقليد، القطيعة، السيرورة**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٦١، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(٤٠) «مفاصل التفاعل بين المعارف»، بناصر البعزاتي، مجلة **فكر ونقد**، العدد الأول، شتنبر ١٩٩٧ م: ٦٠-٧٤.

(٤١) «مفهوم الإبدال»، بناصر البعزاتي، ضمن: **المفاهيم تكونها وسيرورتها**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٧، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م: ٣٩-٥٩.

والأفكار الصائبة، لا تندمج وحدها، بنظره، في صيغة تجميع حسابي، بل تتجمع الأفكار كيفما كانت درجة صوابها، عن طريق التمديد والتداول والتواصل والإيحاء والنقد... بحكم حاجات ثقافية ومجتمعية من صميم طبيعة الإنسان؛ إذ تترابط الأفكارُ بحكم تداخل محتوياتها الدلالية المتصلة.

ولم يفُت الباحث البعزاتي كذلك، أن يشير في مقدمة دراسته "مفهوم الجدل بين الخصوبة والتعسف"[٤٢]، إلى أهمية تداخل المعارف وعمليات التلاقح بينها (ص. ١١٣).

وفي الندوة العلمية التي عقدتها مجموعة بحث بكلية الآداب بالرباط، ساهم الباحث محمد مفتاح بدراسة بعنوان "الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي، حالة الثقافة المغربية"[٤٣]، تعرض لآراء مختصين في الرياضيات وفي البيولوجيا وفي الفيزياء، حول الاتصال والانفصال، وخلص إلى أن آراءهم، على اختلاف مجالات عملهم، تستند إلى خلفيات فلسفية ونظرية وعملية متداخلة (ص. ٥٣). وهذا ما جعله يزكي الرأي الذي يذهب إلى أن المعارف تعيش عبر التاريخ في علاقة تشابك وتداخل مستمرين (ص. ٥٧).

وعليه، فدراسة أي تاريخ ثقافي أو فكري، لا يمكن أن يتم إلَّا في إطار نسق، بما هو عناصر مترابطة ومتفاعلة ومتمايزة (ص. ٦٠).

وعقدت مائدة علمية نعتقدها الأولى من نوعها، تلامس بشكل مباشر قضايا التداخل المعرفي، بعنوان **"انتقال النظريات والمفاهيم"**، وصدرت أعمال هذه المائدة في كتاب جامع تحت العنوان نفسه. وقد سبق أن ذكرنا بعض دراسات هذه المائدة، خصوصًا دراسة الباحث بناصر البعزاتي، ونأتي الآن إلى ذكر أهم الدراسات التي أشارت إلى موضوع بحثنا، تكامل العلوم وتداخل المعارف، بما يزكي ما ذكرناه سلفًا، من اقتصار هذه الدراسات على الإشارات الخفيفة والمتفرقة إلى الموضوع.

في البداية ذكر مُنسِّقَا الندوة أن انتقال النظريات والمفاهيم ظاهرة علمية تطرح مشاكل منهاجية وإبستمولوجية، تستحق الطرح والتحليل والمدارسة وتبادل الرأي. وذكرا أن المشاركين في هذه الندوة باحثون من حقول معرفية مختلفة (ص. ١٠).

---

(٤٢) «مفهوم الجدل بين الخصوبة والتعسف»، بناصر البعزاتي، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**، تنسيق: محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٧٦، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م: ١١٣-١٣٠.

(٤٣) «الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي، حالة الثقافة المغربية»، محمد مفتاح، ضمن: **التحقيب، التقليد القطيعة، السيرورة**: ٤٩-٦٣.

وقد تناولت الأبحاث المقدمة ظاهرةَ انتقال النظريات والمفاهيم من جوانب مختلفة؛ فهناك أبحاث اهتمت بتكون المفهوم أو النظرية في مجالين معرفِيَّين مختلفين، مجال المعرفة الأوروبية أو اليونانية، ومجال المعرفة العربية الإسلامية، وما يترتب عن انتقالهما من المجال الأول إلى المجال الثاني.

وهناك أبحاث اهتمَّت بتكوُّن المفهوم وما يطرأ عليه من تحولات وتغيرات عبر الزمن. وهناك أبحاثٌ اهتمت بانتقال المفاهيم من حقل معرفيٍّ إلى حقل معرفي آخر.

ففي دراسةٍ بعنوان "انتقال المفاهيم: نقد النقد"[٤٤]، ميَّز الباحث محمد الدغمومي بين الانتقال والتحول؛ إذ الانتقال يتمُّ بطرق مختلفة من بينها عمليات التحول (ص. ٤٥). وذكر أن انتقال المفاهيم يتطلب مستوياتٍ من الفهم والوعي لما يحاط بالمفهوم المحول من عوامل تداولية وجدالية تكسبه أبعادًا متعددة. كما أن الانتقال يتطلب بدوره "مفاهيم" لإقحام "المفهوم" في سياقات ثقافية ومعرفية مختلفة.

وانتقال المفاهيم حركة تتم ضمن النظريات، وإن ظهرت كوحدات مفردة أو بصورة مصطلحات. كما يجب الوعيُ بالعبارات التي يتمثل فيها فعل الانتقال؛ حين تشكل العبارات المنقول إليها، أو بها، تجسيدًا للفهم والوعي ولمستويات التلقي (ص. ٤٦).

أما العناصر التي تحدد عمليات الانتقال، فقد لخَّصها الباحث الدغمومي في الزمن، والحاجات والإكراهات الثقافية والمادية، وخصوصية المرجعيات الثاوية وراء تلك الحاجات، والانتباه إلى الانتقال الذي يتم داخلَ الثقافة الواحدة، أو داخل ثقافتين مختلفتين (ص. ٤٧). ومن أمثلة ذلك انتقال نظرية التطور إلى حقل تاريخ الأدب، ومفاهيم البيولوجيا، إلى حقل النقد، ومفهوم المحاكاة من اليونانية إلى العربية، وتحول مفاهيم البنيوية داخلَ الثقافة الفرنسية...

وأما في بحث بعنوان "انتقال النظريات السردية"[٤٥]، فقد ميَّز الباحث سعيد يقطين بين النقل والانتقال؛ فشرَط الأول بالوعي والإحساس بالحاجة إليه، وشرَط الثاني بالدوافع المادية الصرف. ويُمكن، بنظره، أن تتداخل عملية النقل والانتقال، ويصبحان متواشجين ومتكاملين (ص. ٥٥).

وخلال الحديث عن انتقال النظريات السردية اعتمد يقطين على أسس التفاعل والدينامية التي تطبع العلاقات بين المفاهيم والنظريات (ص. ٥٦). وركز على الانتقال الجغرافي للنظريات؛

(٤٤) «انتقال المفاهيم: نقد النقد»، محمد الدغمومي، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ٤٥-٥٢.

(٤٥) «انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق»، سعيد يقطين، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ٥٣-٦٨.

كانتقال نظريات السرد من روسيا إلى فرنسا حيث تشكلت واكتملت، في إطار ما سماه "الانتقال الطبيعي وآفاق الانفتاح" (ص. ٦١). وذكر معوقات النقل، مما لا يساهم في تحقيق الاستفادة اللازمة من عمليات التداخل من خلال النقل، ولا يحقق التراكم المنفتح على التطوير والإغناء، وحصر هذه المعوقات في الترجمة، والتلخيص، والتعدد اللغوي، والتعدد المرجعي، والتحليل والتطبيق (ص. ٦٣-٦٥). وخلص إلى أن عملية النقل يجب أن تذهب إلى الجذور والأصل، وتستمد الروح المنهجية في البحث لتكوين المعرفة.

أما استلهام حصيلة المعرفةونتائجها التي نتعامل معها جاهزة، فلا يمكنها بنظر يقطين، الإسهام في تشكيل معرفتنا ولا تأصيلها، بل تضعها دائمًا أمام دائرة مغلقة (ص. ٦٨).

وفي دراسة بعنوان "انتقال المفاهيم وتداخل مجالاتها في الحقل الثقافي الإسلامي"[٤٦]، حدد الباحث عبد المجيد الصغيّر أسباب ازدهار التداخل في الفضاء الإسلامي، أو ما أسماه بـ"التنقل" أو "الترحل"، في الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي والتفتح الناتج عن انتشار بعض القيم التي تحث على التماس وطلب العلم خارج الحدود ووراء الحواجز المكانية والنفسية.

كما أن ترسيخ أدبيات الحوار والمناظرة والجدل والصراع الفكري داخل الثقافة الإسلامية قد عكس بذاته الانتقالَ والانتشار الذي شهدته العديد من النظريات داخل تلك الثقافة. كما أنالإسلام باعتباره آخرَ حلقة في دعوات السماء، قد مثَّل، بنظر الصغيّر، مجالًا لانتقال الأفكار وتداخلها عبر عمليات التبني والتأويل والتغيير؛ وذلك استنادًا إلى مجموعة من الشواهد المثلى المعتمدة لديه، والتي تكيف عمليات القياس والربط أو الفصل (ص. ٧٠)، فقد قال تعالى: **"مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ"** [المائدة: ٤٨]، وقوله تعالى: **"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ"** [المائدة: ٣]، وفي الحديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**». وقدَّم الصغيّر نماذج من التداخل بين المعارف الإسلامية؛ كالتداخل بين التصوف والتشيع، إلى درجة أن أُشرب كلُّ واحد من الفريقين مذهب الآخر، كما ذكر ابن خلدون[٤٧] (ص. ٧٢). وفي ما يتعلق بالمفاهيم الوافدة وأشكال توظيفها ذكر الصغيّر ما تعرضت له من قلب وتعديل وتحريف مثل مفهوم "النبوة" و"العقل الفعال" و"الجزء الذي لا يتجزأ"؛ إذ تغيرت مقاصدها، عند بعض علماء المسلمين، بما يسمح بإعادة توظيفها في البيئة الإسلامية الجديدة ومقتضياتها التداولية (ص. ٧٧).

---

(٤٦) «انتقال المفاهيم وتداخل مجالاتها في الحقل الثقافي الإسلامي، نماذج من القلب والتبديل والتحريف»، عبد المجيد الصغيّر، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**: ٦٩-٨٣.

(٤٧) **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم، بيروت، لبنان، دون تاريخ: ٨٧٥.

وفي مجال آليات الاشتغال التداخلي اتخذ الصغيّر مجهودَ الفارابي نموذجًا لملاحظاته؛ فوجده في تقويمه لعلم الكلام ضمن كتابه "إحصاء العلوم" يستند إلى مرجعيةٍ يونانية، تتخذ من تاريخ الحركة السفسطائية، أو بالأحرى من صورة أفلاطون المشوهة عن تلك الحركة، "شاهدًا أمثل" يسمح وحده بقياس الحركات الكلامية في الإسلام على تلك الحركات السفسطائية عند اليونان، مما أسقط الفارابي، بنظر الصغيّر، في أحكام على علم الكلام هي أقرب إلى التحريف منها إلى التعريف (ص. ٧٧-٧٨).

واعتبر الصغيّر علمَ أصول الفقه أكثر العلوم الإسلامية توفيرًا لفرص النقل والتداخل بين المعارف (ص. ٧٩). ولم يخف ما تنطوي عليه عمليات النقل والتداخل من اعتبارات فكرانية (أيديولوجية) تسعى في الغالب إلى تبرير ذلك النقل والتداخل، وإقناع القارئ أننا لسنا بصدد نقل مفاهيم وأفكار جديدة، بقدر ما نحن بصدد "إحياء" وتجديد مفاهيمنا القديمة نفسها التي وقع التعامي عن جدتها وفائدتها الكبرى (ص. ٨٠)!

وفي بحثٍ بعنوان "تنقل مفهوم "العقل" حتى القرن الثالث عشر الميلادي"[٤٨]، تناول الباحث عبد السلام بن ميس تعدد مفهوم العقل بانتقاله بين الثقافات: اليونانية والمسيحية والإسلامية، وذكر ما اعتراه من تغيرات من خلال عمليات التداخل الثقافي، سواء في معناه أو في تطبيقاته.

أما الباحث عبد الرزاق الدواي، فقد أثبت في دراسة بعنوان "مفهوم اللاشعور: نماذج من انتقالاته في الفكر المعاصر"[٤٩]، أن انتقال مفهوم من حقل معرفي معينٍّ لكي يستعمل في حقل معرفي آخر مغاير، لا يعني دائمًا تبني عناصر النظرية السابقة التي كان يقوم عليها بكاملها؛ إذ ثبت، لديه، أن المفهوم يفقد دائمًا بعض العناصر من دلالته الأصلية الأولى. وفي الوقت ذاته يكتسب عناصر دلالية أخرى جديدة. كما تناط به في أغلب الأحيان مهمة القيام بدور آخر غير الذي كان له في الأول، وكذا حل مشكل آخر من طبيعة مختلفة.

وعلى هذا الأساس تتبع الباحث الدواي مفهوم اللاشعور كواحد من المفاهيم الجوَّالة والذي ينتقل عبر شبكة من الخطابات تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة. وفي السياق نفسه تتبع الباحث محمد الأسعد "انتقال مفهوم التكيف من الأنثروبولوجيا إلى الجغرافيا الاجتماعية

(٤٨) «تنقل مفهوم "العقل" حتى القرن الثالث عشر الميلادي»، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ٩٥-١١٢.

(٤٩) «مفهوم اللاشعور: نماذج من انتقالاته في الفكر المعاصر»، عبد الرزاق الدواي، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ١٣١-١٦٠.

بالمغرب"[٥٠]. وذكر أن مسألة انتقال المفاهيم من تخصص إلى آخر، تطرح عنده قضية انتشار المعرفة وتقاطعها بين مختلف العلوم.

كما اعتبر أن الإغناءَ النظري للمفهوم المتنقل من علم لآخر وتأصيله هو جوهر إشكالية انتقال المفاهيم. وأشار إلى غزارة الأشكال التداخلية في علم الجغرافيا من خلال انتقال عدة مفاهيم ارتبطت بالعلوم الطبيعية؛ خاصة الإيكولوجيا والبيولوجيا، أو بالعلوم الإنسانية.وركَّزت الدراسة على العلاقة بين الأنثروبولوجيا والجغرافيا الاجتماعية، من خلال انتقال مفهوم التكيف.

وقد عالج الباحث الأسعد هذا التداخلَ من خلال جوانب ثلاثة هي: تحديد مفهوم التكيف في الأنثروبولوجيا، وتحديد مفهومه في الجغرافيا الاجتماعية، ثم انتقال القيم الإبستمولوجية لمفهوم التكيُّف من الأنثروبولوجيا إلى الجغرافيا الاجتماعية.

وفي الندوة العلمية التي عقدت بجامعة محمد الخامس، بكلية الآداب بالرباط، ونشرت أعمالها تحت عنوان "المفاهيم: تكونها وسيرورتها"[٥١]، تحدث منسقا الندوة، في تقديمهما، عن أهمية دراسة المفاهيم من حيث تكونها وسيرورتها، مما يوقفنا، بنظرهما، على كثير من الجوانب العلمية والتاريخية التي تكون وراء المفهوم.

كما يوقفنا أيضا تاريخُ المفهوم على الظروف والملابسات العلمية وغير العلمية التي ظهر فيها. وقد يدلنا كذلك على ما قد يعتري المفهوم من تطورات وتغيرات عند الاشتغال به، سواء في حقله الأصلي أو في الحقول الأخرى التي قد ينتقل إليها.

وفي دراسة عن "ما المفهوم؟"[٥٢]، أشار الباحث محمد مفتاح في خاتمته، أنه استند في صياغة أفكاره في الدراسة إلى عدة مراجع مختلفة في مجالات متعددة؛ مثل المعاجم وأصول الفقه والمنطق ودراسات أجنبية أخرى، تناولت المفهوم بكيفية مباشرة أو غير مباشرة (ص. ١٩)، مما يبرز أهمية التكوين التداخلي المعرفي عند الباحث المعاصر.

---

(٥٠) «انتقال مفهوم التكيف من الأنثروبولوجيا إلى الجغرافيا الاجتماعية بالمغرب»، محمد الأسعد، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**: ١٦١-١٧١.

(٥١) **المفاهيم: تكونها وسيرورتها**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٧، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م.

(٥٢) «ما المفهوم؟»، محمد مفتاح، ضمن: المفاهيم: تكونها وسيرورتها: ١١-١٩.

وبحق تمثل أعمال محمد مفتاح مجالًا خصبًا ونموذجيًّا لتداخل المعارف، مما يحتاج إلى دراسات مستقلة للوقوف على ذلك.

وعن "إشكالية مفهوم جديد"[٥٣]، جعل الباحث عبد الرزاق الدواي دراسته، فركَّز على تشكل مبحث معرفي جديد، وهو ما اصطلح عليه بـ Biothique، يهتم بالتفكير الفلسفي والقانوني في المشاكل الأخلاقية الناجمة عن الأبحاث والدراسات المعاصرة في علوم البيولوجيا، وبصفة خاصة في فرعها المختص بالهندسة الوراثيةLa génie génétique.

وفي الدراسة تركيز على مجالات معرفية مختلفة ومتداخلة يستقطبها هذا المبحث الجديد؛ كالقانون والسياسة وحقوق الإنسان والبيئة والاقتصاد والفكر المستقبلي والإستراتيجي والعلاقات الدولية، ومجالات الطب والصحة والبيولوجيا..

وفي دراسة الباحث سعيد يقطين حول "التفاعل النصي والترابط النصي بين نظرية النص والإعلاميات"[٥٤]، استعمل "مصطلح التفاعل النصي" كمقابل "للمتعاليات النصية" عند جيرار جنيت. ومصطلح التفاعل عند يقطين أعم وأشمل من "التناص" وأدق من "المتعاليات النصية". كما أنه مفهوم مفتوح على كل العلاقات الكائنة والممكنة.

وعوَّض يقطين، أيضًا، التعلُّقَ النصي عند جنيت بـ"الترابط النصي". وفي نقطة "التفاعل النصي وآليات الاشتغال" أوضح يقطين أن التفاعل الذي اختاره ذو بعد جامع بين مختلف النصوص، أدبية وغير أدبية، وكيفما كانت طبيعتها أو شكل تجليها، شفاهية أو كتابية أو إلكترونية (ص. ١٢١).

وخلاصة دراسة يقطين، من الوجهة المنهجية التي تعنينا، أنه يدور حول نظريات النص التي استفادت وتطورت من خلال تداخلها مع ما تحقق في الإعلاميات بصفة عامة والإعلاميات اللسانية بصفة خاصة.

كما أشارت إلى تضافر اختصاصات شتى في مقاربة النص، أيِّ نص، واستثمارها في معالجته؛ مثل نظرية الذكاء الاصطناعي، والنظريات المعرفية والإدراكية والنفسية.

---

(٥٣) «ما المفهوم؟»: ١٦٥.

(٥٤) «التفاعل النصي والترابط النصي بين نظرية النص والإعلاميات»، سعيد يقطين، ضمن: المفاهيم: تكونها وسيرورتها: ١١٣-١٢٧.

واعتبر يقطين أن دراسته تمشي وفق قاعدة أساسية وهي أن الدماغ البشري يعمل وفق مبدأ "الترابط"، وأي نص كيفما كان نوعه فهو نتاج عمليات معقدة من التفاعل والترابط. فاستثمار هذا التصور التداخلي، بنظر يقطين، سيطور تصورنا للنص الأدبي العربي، وسيعمق معرفتنا به، لكن تطوير فهمنا للنص يمرُّ عبر تطوير فهمنا، في كليته، وضبطنا لمختلف العلاقات النصية (ص. ١٢٦-١٢٧).

وعقدت ندوة بجامعة مكناس، بكلية الآداب حول **"قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية"**[٥٥]، قدمت فيها أزيد من ثلاثين ورقة علمية. وبرغم طابعها التداخلي، فإنَّا لم نظفر منها إلا ببحثين متعلقين بقضايا التداخل المعرفي، من خلال المفاهيم والمصطلحات، في الجزء الأول، وأدرجا في محور "المصطلح في العلوم الإنسانية: من التعريب إلى التوحيد":

البحث الأول بعنوان "أهمية الصيغ الصرفية في توحيد الاستعمال الاصطلاحي والربط المعرفي بين العلوم"[٥٦]، أوضح فيه الباحث الحسين عنوان صلاحيات المشتقات الصرفية لبناء أنساق اصطلاحية، من خلال توظيف بنية مشتقة واحدة للدلالة على مفاهيم متنوعة في علوم مختلفة.

كما أوضح، من خلال نماذج تطبيقية، صلاحية البنية الصرفية الواحدة لصياغة مصطلحات متعددة في علوم مختلفة، مما يبرز، بنظره، مؤهلات اللغة العربية في إبداع العلم والمعرفة. وهذا أيضًا ما يحقق الوحدة أو التداخل بين العلوم المتنوعة بواسطة بنيات صرفية محدودة، إضافة إلى وجود تعالقات متينة بين البنيات الصرفية والمفاهيم الاصطلاحية (ص. ١٢٩).

والبحث الثاني بعنوان "المفاهيم الرحالة، من علم لآخر"[٥٧]، تساءل فيه الباحث محمد حدوش عن سبب ارتحال بعض المفاهيم العلمية من علم لآخر، وكيف تصير عندما تهاجر من علم صلب Dure إلى علم رخو Molle، أو العكس، وهل تحتفظ بنفس المعنى، وهل تساهم في توحيد حقل العلوم أو العكس؟

وانطلق الباحث في تحليله من مسلّمة تقول: إن الكثرة الكاثرة من المفاهيم العلمية هي مفاهيم عديمة الجنسية، ومستقلة ذاتيًّا، بل ومتحررة من كل ارتباطٍ بالحقل المعرفي المصدر!

---

(٥٥) **قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية**، جزآن، أعمال ندوة جامعة مكناس، إعداد عز الدين البوشيخي ومحمد الوادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، سلسلة الندوات، رقم ١٢، ٢٠٠٠م.

(٥٦) «أهمية الصيغ الصرفية في توحيد الاستعمال الاصطلاحي والربط المعرفي بين العلوم»، د. الحسين كنوان، ضمن: **قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية**: ١/ ١٠٩-١٣٣.

(٥٧) «المفاهيم الرحالة، من علم لآخر»، محمد حدوش، ضمن: **قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية**: ١/ ١٣٥-١٤٣.

وكلازمة لذلك، أثبت الباحث حدوث أن هجرة المفاهيم تُساهم في تحقيق التكامل المعرفي بين الحقول العلمية.

وتعقب في مقاله سلوك بعض المفاهيم العلمية وتنقلها من علم لآخر من خلال ثنائية التصلب Durcissement والاقتناص Capture، وعمليات انتشار المفاهيم La propagation des concepts. وأشار إلى أشكال التعايش بين المعارف من خلال انتقال المفاهيم وارتحالها مما يتعلق بقضايا التداخل المعرفي.

وفي دراسة بعنوان "التقدم العلمي ومشكلاته"[٥٨]، ذكر الباحث السيد نفادي أن الثورة العلمية الحديثة تميزت بالتقارب بين العلم والفلسفة؛ فقد لعبت هذه الأخيرة دورًا أساسيًّا في تأييد النظام الكوبرنيقي، وفي تطوير علم البصريات، وفي بناء علم ديناميكا غير أرسطي.كما أشار الباحث إلى قضايا التداخل المعرفي من خلال عالم نموذجي هو جاليليو؛ إذ كانت أعماله خليطًا من المبادئ الفلسفية والرياضية والفيزيائية التي تزاملت معها دون إعطاء انطباع عام بعدم الاتساق بينها.

وفي موضوع **"آليات الاستدلال في العلم"**، عقدت مجموعة البحث في فلسفة وتاريخ العلوم ندوةً علميةً شارك فيها متخصصون في شتى الميادين، بإشراف كلية الآداب بالرباط، وقد صدرت أعمال الندوة بالعنوان نفسه[٥٩]. وقدمت فيها، من بين البحوث الكثيرة، دراستان تهمان موضوعنا حول التداخل المعرفي:

الأولى بعنوان "الاستدلال: مستويات في القوة والوثاقة"[٦٠]، تحدث فيها الباحث بناصر البعزاتي عن مفهومي "الاستدلال: و"التعقل"، وأشار إلى أنهما متقاطعان ومتداخلان رغم الاختلاف الحاصل بينهما من حيث الدلالة والوظيفة، بحكم الذاكرة التاريخية لكل واحد منهما (ص. ١٥) بما قد يفيد نوعًا من الفصل بين العلوم، إلا إنه عاد وتبنى رأي بعض الفلاسفة في القول: إن الآليات الاستدلالية تقبل التداخل والامتزاج بنسب معينة، كما أن هذه الآليات تندمج فيما بينها ولا تشكل جُزُرًا مقطوعة بعضها عن بعض (ص. ١٨)؛ إذ من الصعب، بنظر الباحث البعزاتي وهو المهتم بقضايا التداخل كما ذكرنا، تسطير حدود واضحة بين الآليات الاستدلالية (ص. ١٩).

---

(٥٨) «التقدم العلمي ومشكلاته»، السيد نفادي، مجلة **عالم الفكر**، المجلد ٢٩، العدد الثاني، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٠: ١٣-٤٩.

(٥٩) **آليات الاستدلال في العلم**، تنسيق عبد السلام بن ميس، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٤، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٦٠) «الاستدلال: مستويات في القوة والوثاقة»، بناصر البعزاتي، ضمن: آليات الاستدلال في العلم: ١١-٣٧.

والدراسة الثانية في ندوة **"آليات الاستدلال في العلم"**، بعنوان "خصائص الاستدلال في تناول مفهوم الواحد بين الرياضيات وعلم ما بعد الطبيعة"[٦١]، ذكر فيها الباحثُ عبد العزيز العثماني أن بحثَ العلاقة بين الرياضيات والفلسفة داخل التراث العلمي والفلسفي الإسلامي، يدلنا على أن الرياضيات كانت تصنف عند كثير من العلماء والفلاسفة المسلمين ضمن ما عرف باسم: العلوم الفلسفية، وهو ما نجده عند إخوان الصفا والغزالي وابن خلدون وغيرهم. كما عدَّ التفكير والنظر في الأسس والمبادئ الكبرى للرياضيات الجانب الأكثر أهميةً وخصوبة في بعض المواضيع، وفي مقدمتها مفهوم الواحد (ص. ٨١)، وقد اعتمد الباحث العثماني في بحثه التداخلي على أعمال الرياضيين المغاربة وفي مقدمتهم ابن البناء المراكشي (٧٢١ هـ) للحضور المكثف للنص الفلسفي داخل أعماله (ص. ٨٢).

وخَلُص إلى أن ما تعذر حصولُه في العلاقة بين الرياضيات والطبيعيات أمكن حصوله، من خلال مفهوم الواحد، بين الرياضيات وصناعة ما بعد الطبيعة (ص. ٩٦).

وبعد ندوة "المفاهيم: تكونها وسيرورتها"، عقدت الحلقة الثانية من الندوة العلمية بإشراف كلية الآداب بالرباط، عن **"المفاهيم وأشكال التواصل"** وصدرت أعمال هذه الندوة تحت الاسم نفسه[٦٢]. وأشار المنسقان في التمهيد لأعمال الندوة إلى أن مواصلةَ البحث في المفاهيم جاء لما لها من أهمية قصوى في إنتاج خطاب علمي دقيق، ولخلق تواصل، وكذا بين مختلف المعارف والفنون، وكذا بين مختلف الثقافات والحضارات في الأخير؛ ذلك أن المفاهيمَ الصحيحة تساعد على إنتاج تواصل سليم وصحيح.

ولما كانت أشكال التواصل تختلف من حقل معرفي إلى آخر، كما تختلف المفاهيم التي يقوم عليها كل حقل معرفي، اقتضى الأمر مشاركة أساتذة متعددي المشارب والتخصصات (ص. ٩). ووقفنا في هذه الندوة العلمية على أربع دراسات تهم موضوعنا في تداخل المعارف؛ ففي بحث بعنوان "التواصل: المفاهيموالقنوات"[٦٣] أصَّل الباحثُ بناصر البعزاتي للتواصل الإنساني في بعده الأنطولوجي (الوجودي)، مركزًا على أن الإنسان محكوم بقدر التواصل سواء مع العالم الطبيعي، أو مع الأفراد، أو مع الجماعات.

---

(٦١) «خصائص الاستدلال في تناول مفهوم الواحد بين الرياضيات وعلم ما بعد الطبيعة»، عبد العزيز العثماني، ضمن: آليات الاستدلال في العلم: ٨١-٩٦.

(٦٢) **المفاهيم وأشكال التواصل**، تنسيق: محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٩٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٦٣) «التواصل: المفاهيم والقنوات»، بناصر البعزاتي، ضمن: **المفاهيم وأشكال التواصل**: ١١-٣١.

وفي فقرة تحت عنوان "مفهوم التواصل: مظاهره ومحدداته في علم النفس الاجتماعي"[٦٤]، تحدث الباحثُ عبد الكريم بلحاج عن أشكال التواصل عبر عمليات التفاعل من نوعين: نوع يعكس علاقة تماثلية Symétrique، ونوع يعكس علاقة تكاملية Complémentaire. وهذان النوعان من التفاعل أكثر ارتباطًا بمجال العلاقات الإنسانية، وخاصة المهنية.

ولم يُدخل الباحث في دراسته إمكانيات التفاعل بنوعيه بين المعارف (ص. ٤٩). فبرغم إشارته في خاتمة بحثه إلى أهمية التفاعل والتواصل على المستوى المعرفي، إلا إنهكان حبيسَ تصور محدد للتواصل بما هو فعل اجتماعي بامتياز (ص. ٥٨).

وفي دراسة بعنوان "المفهوم ومشكلة التواصل"[٦٥]، ذكر الباحث عبد المجيد الصغيّر، في معرض رده على عبد الله العروي حول مفهوم الحرية في الحقل الإسلامي، إمكانية انتقال المفاهيم وتواصلها ولو عبر مصطلحات مختلفة ومتنوعة؛ إذ مصطلح "الحرية" كان يعني، مثلًا، عند المتكلمين مصطلح "الاختيار" (ص. ٦٠).

كما ألح الباحث الصغيّر على دور المفاهيم في إقامة علاقة تواصلية بين المتداولين لها، مثل مصطلح "النسخ" الذي وظف بطرق شتى، وفي حقول معرفية متعددة؛ كالأصول والكلام والقانون.. ويرجع الصغيّر هذا الفضل في تواصل المعارف عبر المفاهيم والمصطلحات إلى مجهودات الغزالي في تداخل المعارف مما عارضه ابن رشد وتحفظ عليه (ص. ٦١-٦٢).

والبحث الأخير في هذه الندوة الذي يشير إلى موضوعنا، كان بعنوان النص والتواصل: مدخل إلى النص الإلكتروني"[٦٦]، أعاد فيه الباحث سعيد يقطين الحديث عن الترابط النصي، اعتمادًا هذه المرة على أعمال ب. لاندو ومن نظروا للنص الإلكتروني وصلاته الوثيقة بالحاسوب والتكنولوجيا ونظرية الأدب (ص. ٨٨)؛ فالنص الإلكتروني، بنظر يقطين، أصبح واقعًا جديدًا، بتجربته المفتوحة على ما يقدمه التطور الحاصل في مجال الإعلاميات من إمكانات مهمة؛ إذ يفتح آفاقًا جديدة للإبداع، ويخلق شروطًا جديدة للكتابة والتَّلقي (ص. ٩١)، مما لا يمكن تناوله بنظرنا، إلا في إطار تصور تداخلي للمعارف.

---

(٦٤) «مفهوم التواصل: مظاهره ومحدداته في علم النفس الاجتماعي»، عبد الكريم بلحاج، ضمن: **المفاهيم وأشكال التواصل:** ٤٣-٥٨.

(٦٥) «المفهوم ومشكلة التواصل»، عبد المجيد الصغيّر، ضمن: **المفاهيم وأشكال التواصل:** ٥٩-٧٤.

(٦٦) «النص والتواصل: مدخل إلى النص الإلكتروني»، سعيد يقطين، **المفاهيم وأشكال التواصل:** ٧٥-٩١.

ووقعت يدنا على بحث طريف بعنوان **"المنهج التكاملي: أو حين يتحول النقد إلى هرطقة"**[٦٧] للباحث رشيد بنحدو، أشاد في بدايته بدراسة إدوارد سعيد التي سبقت الإشارة إليها "انتقال النظريات". وأقرَّ الباحث بنحدو بأهمية تصوره لظاهرة تداخل المعارف وتنقلها، إلاَّ إنه أبدى تضجره من بروز نزوع جديد في اتجاه **"توفيقية مخاتلة"** بين مناهج ذات حدود فاصلة، يدعى زورا، بنظره، **"المنهج التكاملي"**. وهذا ما يتطلب، عنده، التصدي لهذه الظاهرة بصرامة.

وخلاصة هذا المنهج التكاملي، التلفيقي، عند الباحث بنحدو، هو استنفار الباحث، أي باحث، أو ناقد، أو باحث لشبكات قرائية متعددة ومتنوعة، وتشغيله لأجهزة مفهومية متنابذة في أثناء تعاطيه للنص. وهذا ما يَسِمُ خطابه بالتهافت وبعدم الانسجام النظري وبالإسقاط المنهجي؛ إذ يحول النص المدروس إلى موضوع تجرب عليه الأدوات الإجرائية المتنافرة والمتعارضة، ومن هنا هاجم بنحدو دعوى التكامل بين المناهج.

كما رفض ما يسمى بـ**"النقد التكاملي"**. وألح على الاستقلال الإبستمولوجي لكل منهج، وأفقه النظري، وخصوصياته المنهجية. واعتبر ذلك "التكامل" عائقًا معرفيًّا أمام البحث والدراسة، وإخلالًا بمسؤولية الناقد نفسه. إلا إنه عاد في نهاية بحثه ليقر بأهمية التداخل، واستدرك على أفكاره الأولى بتوضيح مفاده: أنه لا يدعو إلى تكريس "الأيديولوجيا الإمبريالية العمياء" التي تقوم على معرفة واحدة، ومنهج واحد، وعلى نص واحد، بل لا بد، بنظره، من تعدد المعارف والمناهج وتداخلها، إلَّاإنه لم يوضح كيفَ يكون ذلك!..

وآخر ما امتدت إليه أيدينا فيما يتعلق بما نشر في دوريات متخصصة أو عامة، فيه إشارات إلى قضايا التداخل المعرفي والعلاقات بين العلوم، ما نشره الباحث كمال عبد اللطيف، في حلقات، تحت عنوان "أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب"[٦٨]. وسنشير إلى الحلقات التي تهمنا في البحث وحسب.

ففي حلقة بعنوان "الفكر الفلسفي المغربي: مسار في التأسيس"[٦٩]، ذكر الباحث كمال عبد اللطيف أن من مهام التفكير الفلسفي الانشغال بالإشكالات الفكرية التي تقع في ملتقى مجالات

---

(٦٧) «المنهج التكاملي: أو حين يتحول النقد إلى هرطقة»، رشيد بنحدو، **العلم الثقافي**، ملحق يصدر عن جريدة العلم المغربية، عدد السبت ٢٥ رجب ١٤٢٢هـ/ ١٣ أكتوبر ٢٠٠١م.

(٦٨) «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، كمال عبد اللطيف، حلقات منشورة بجريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، طيلة أيام رمضان ١٤٢٢هـ.

(٦٩) «الفكر الفلسفي المغربي: مسار في التأسيس»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٣، الجمعة ٧ دجنبر ٢٠٠١.

فكرية وعلمية متقاطعة؛ مثل فلسفات التاريخ والحضارة، وفلسفات العلوم، والأسئلة الفلسفية التي تطرحها العلوم الإنسانية، وفلسفة العلم وإشكالية الأخلاق الجديدة الناشئة في العقود الأخيرة، بمناسبة التفكير في فتوحات الطب، وفي غيره من العلوم والتقنيات المرتبطة بأسلحة الدمار والتدمير.

فكل هذه الإشكالات، بنظر عبد اللطيف، تنتمي إلى مجال التأمل والممارسة النظرية الفلسفية، وتساهم في توسيع الفلسفة المعاصرة، وتنوع أنماط الكتابة الفلسفية، كما تبني من جديد موضوعات قديمة لمحتويات جديدة وأسئلة غير مسبوقة (الحلقة رقم ٢٢).

وفي حلقة بعنوان "موجات فلسفية جديدة"[٧٠]، ذكر الباحث عبد اللطيف أنه إذا كانت النزعات الفلسفية التاريخية والسياسية قد وجهت بصورة عامة الاختيارات الفلسفية الكبرى في فكرنا المعاصر، فإن الموجات الفلسفية الجديدة التي عمل الجيل الثاني من المؤسسين على إيجاد نوعٍ من الألفة معها، ومع لغاتها ومفاهيمها، قد ضيَّق من مساحة حضور المنزع التاريخي لمصلحة عناية أكبر بالخطاب الميتافيزيقي والخطابات البنيوية، والتي تتحدث عن البنيات المعقدة والمركبة للظواهر داخل الزمان، وداخل أنساقها الخطابية وأنظمتها في القول والكتابة. هذه الأنساق، الأنظمة، أصبح من المؤكد أنها تؤثر بدورها على المعاني وعلى عمليات إنتاجها النظرية والتاريخية (الحلقة ٢٧).

وفي حلقة بعنوان "نحو خريطة مؤقتة للخطاب الفلسفي الجديد"[٧١]، أشار الباحث عبد اللطيف إلى أن تداخل المعارف يعتبر اليوم من المجالات والفضاءات المعرفية الجاذبة للنظر الفلسفي المغربي. وهذه الفضاءات هي مواصلةُ العناية بسؤال التراث من جهة أولى، ومن جهة ثانية، تتمثل في الحضور البارز لبعض رموز ومفاهيم ومنهجيات الفلسفة المعاصرة، إضافة إلى العناية بالقضايا الإبستمولوجية وإشكالات تاريخ العلوم والمعارف مع اهتمام خاص بالحفريات النظرية في القطاعات المعرفية المختلفة، في أفق دعم التصورات المسلِّمة بتكامل المعرفة وتقاطعها.

هذا دون أن ننسى هجرة المفاهيم الفلسفية إلى قطاعات معرفية ترتبط بمجالات العلوم الإنسانية، ويكون ذلك بالصورة التي تطور الممارسة الفلسفية وتتيح لفكرنا توسيعَ آليات المقاربة الفلسفية.

---

(٧٠) «موجات فلسفية جديدة»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٨، الأربعاء ١٢ دجنبر ٢٠٠١.

(٧١) نحو خريطة مؤقتة للخطاب الفلسفي الجديد»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٩، الخميس ١٣ دجنبر ٢٠٠١.

كما يؤهلها للمساهمة في مجالات معرفية متنوعة، ويسمح لمفاهيمها ببناء أنساق معرفية أكثر قوة وأكثر غنى، إضافة إلى أن التوسع والتوسيع في استعمال المفاهيم والآليات المذكورة يهب الأدوات الفلسفية والتصورات الفلسفية فرصًا جديدة لتطوير نماذجها المنهجية والمفهومية.

وأشار الباحث عبد اللطيف إلى أن ما بدأ يرسخ قواعد البحث التداخلي هو الحفريات، التي تقوم بها مجموعات بحث داخل كلية الآداب بالرباط، وهي التي نشرت مجموعة من أبحاثها وأوراقها العلمية المقدمة إلى ندوات تداخلية عدة وكذا بوجدة، وخاصة مجموعة البحث في العلم والثقافة.

وهذا الكتاب، كما ذكرنا، يكون من منطلق تخصصات معرفية متعددة؛ حيث يتم التفكير في بناء بعض المفاهيم من زوايا نظر مختلفة، وبهدف ترتيب محتواها النظري في أكثر من حقل من حقول المعرفة (الحلقة ٢٨).

وفي حلقة بعنوان "التفكير في المفاهيم"[٧٢]، أشار الباحث كمال عبد اللطيف إلى المجهودات التي بذلتها مجموعات البحث التداخلي، بكلية الآداب بالرباط، على الخصوص، من منظور يروم تشييد جهد في التدليل على مزايا التداخل المعرفي.

فنحن إذن، بنظر الباحث عبد اللطيف، أمام إنتاج نظري جديد، ينجزه باحثون ينتمون إلى تخصصات معرفية متنوعة؛ وهم فيما أنجزوا، بنظره، يضمرون تصورات غير معلنة في الأغلب الأعم، تفيد أن مجال المعرفة في الفكر المعاصر لم يعد يقبل العملَ الفردي رغم أهميته القصوى.

بل إن العمل الجامعي في اتجاه دقيق ومحدد، يمكن أن تكون مردوديته في المدى المتوسط والطويل أقوى وأمضى؛ إذ التوجه إلى البحث التداخلي يتيح إمكانية النظر في مفاهيم ذات صلة بمحيطها الفكري والتاريخي العام، كما يمنح الممارسة جدارة نظرية تجمع فيها بين المواكبة المعرفية لمآل تطور الأفكار والمفاهيم في الفكر المعاصر، وبين البحث في مفاهيم ترتبط بإشكالات محددة في ثقافتنا وأنظمة فكرنا القائمة.

ولكن العيب في تأريخ الباحث كمال عبد اللطيف، هو اعتباره هذه المجهودات التداخلية من مكاسب الدرس الفلسفي وحده، ودون اعتبار هذا المجهود يتعلق بالفكر والمعرفة في شموليتهما.

---

(٧٢) «التفكير في المفاهيم»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠٠، الجمعة ١٤ دجنبر ٢٠٠١.

مع أن الباحث عبد اللطيف خرج بخلاصة مهمة من عمليته التأريخية، وهي إقراره بسيادة النزعات الإبستمولوجية التكاملية والنقدية؛ حيث تتجه المباحث التي ترتبط بهذه النزعات إلى التخلص من أَسْرِ التمذهب الفلسفي والعلمي، وتمنح الامتياز في مجال فلسفة العلوم وفي مجال الحفريات المفهومية للتعدد في المنهج، وفي الرؤية وفي أشكال المقاربة (الحلقة ٢٩).

وفي حلقة بعنوان "أسئلة التراثوالحداثة.. أسئلة التركيب النقدي للمفاهيم"[٧٣]، ذكر الباحث عبد اللطيف أن آخرَ الموجات الفلسفية في الفكر المغربي المعاصر، والتي تعتبر مستجدًّا في فكرنا الفلسفي، هي موضوع التفكير في المفاهيم، وإنجاز حفريات تعني بتركيب وبناء المفاهيم من منطلق تخصصات ولغات ومرجعيات متنوعة، مع عناية خاصة بمفاهيم الإبستمولوجيا وفلسفة العلوم ومفاهيم التاريخ، وفلسفة التاريخ، ثم موضوع انتقال المفاهيم والنظريات في مجال المعرفة والعلوم (الحلقة ٣٠).

وكانت الحلقة الأخيرة بعنوان "الأسئلة الغائبة في مقاربتنا للفكر الفلسفي في المغرب"[٧٤]، ذكر فيها الباحث عبد اللطيف بالمجهودات التي لم يستطع الحديث عنها في دراسته التأريخية للفكر الفلسفي في المغرب؛ خاصة مجهودات الحبابي الذي أصدر مجلةَ "دراسات فلسفية أدبية" ثم مجلة "تكامل المعرفة"، ومنها أخذنا مقال«Qu’ est ce que l’interdisciplinarité?» للباحث علال سيناصر.

والمجلتان مخصصتان لفضاء الفكر الفلسفي، وفضاء الفكر على وجه العموم، انطلاقًا من إيمان الحبابي بالتكامل المعرفي في زمن تنوع المعرفة المعاصرة وتعدد تخصصاتها (الحلقة ٣١).

خاتمة:

إن المشاركة في السجال الفكري والفقهي، من منظور أطروحة تكامل العلوم وتداخل المعارف، مهمة فكرية معقدة تتطلب دراية واسعة بالأفكار والمناهج والمدارس والمذاهب.وهو الأمر الذي كان يدركه علماء الإسلام قديمًا، بمختلف انتماءاتهم الفكرية والفقهية والمذهبية والمللية، فأسسوا معمارًا ثقافيًّا يقوم على التنوع والاختلاف، وعلى الانفتاح المتبادل، وعلى المناظرة والجدل والنقد والنقض، مما يحتاجه الفكر الإسلامي اليوم، وتحتاجه حياتنا الثقافية والعلمية.

(٧٣) «أسئلة التراث والحداثة.. أسئلة التركيب النقدي للمفاهيم»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠١، السبت ١٥ دجنبر ٢٠٠١.

(٧٤) «الأسئلة الغائبة في مقاربتنا للفكر الفلسفي في المغرب»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠٢، الأحد ١٦ دجنبر ٢٠٠١.

لائحة المصادر والمراجع:

- «أسئلة التراث والحداثة.. أسئلة التركيب النقدي للمفاهيم»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠١، السبت ١٥ دجنبر ٢٠٠١.
- «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، كمال عبد اللطيف، حلقات منشورة بجريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، طيلة أيام رمضان ١٤٢٢هـ.
- «الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي، حالة الثقافة المغربية»، محمد مفتاح، ضمن: **التحقيب، التقليد القطيعة، السيرورة.**
- «الاستدلال: مستويات في القوة والوثاقة»، بناصر البعزاتي، ضمن: آليات الاستدلال في العلم: ١١-٣٧.
- «الأسئلة الغائبة في مقاربتنا للفكر الفلسفي في المغرب»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠٢، الأحد ١٦ دجنبر ٢٠٠١.
- «التفكير في المفاهيم»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٧٠٠، الجمعة ١٤ دجنبر ٢٠٠١.
- «التقدم العلمي ومشكلاته»، السيد نفادي، مجلة **عالم الفكر**، المجلد ٢٩، العدد الثاني، أكتوبر-ديسمبر ٢٠٠٠.
- «الخطاب الأدبي ولسانيات النص»، منذر عياشي، مجلة **دراسات أدبية ولسانية**، العدد السابق **نفسه**: ٤٠-٥٧.
- «الفكر الفلسفي المغربي: مسار في التأسيس»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٣، الجمعة ٧ دجنبر ٢٠٠١.
- «المنهج التكاملي: أو حين يتحول النقد إلى هرطقة»، رشيد بنحدو، **العلم الثقافي**، ملحق يصدر عن جريدة العلم المغربية، عدد السبت ٢٥ رجب ١٤٢٢هـ/ ١٣ أكتوبر ٢٠٠١م.
- «النص والتواصل: مدخل إلى النص الإلكتروني»، سعيد يقطين، **المفاهيم وأشكال التواصل.**

- «انتقال المفاهيم وتداخل مجالاتها في الحقل الثقافي الإسلامي، نماذج من القلب والتبديل والتحريف»، عبد المجيد الصغيّر، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم.**

- «انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق»، سعيد يقطين، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ٥٣-٦٨.

- «انتقال النظريات»، إدوارد سعيد، ترجمة أسعد رزوق، مجلة **الكرمل**، العدد التاسع، ١٩٨٣م.

- «انتقال مفهوم التكيف من الأنثروبولوجيا إلى الجغرافيا الاجتماعية بالمغرب»، محمد الأسعد، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم.**

- «بديع القرآن ومصطلحاته: تنقيح وتجديد في الترتيب»، أحمد أبو زيد، ضمن: ندوة **الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية**، ندوة انعقدت أعمالها أيام ٨-٩-١٠ جمادى الثانية ١٤١٤ هـ/ ٢٣-٢٤-٢٥ نوفمبر ١٩٩٣ م، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، دون تاريخ: ١/ ٣٧١-٣٧٩.

- «بنية التوازن والتقابل: قراءة في البلاغة العربية»، محمد العمري، مجلة **دراسات أدبية ولسانية**، العدد السادس، ربيع ١٩٨٧م: ١٨-٣٩.

- «تاريخ العلوم، من إعادة بناء إلى أخرى»، بناصر البعزاتي، ضمن: **كيف يؤرخ للعلم؟**، تنسيق سالم يفوت، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٥٨، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

- «تنقل مفهوم "العقل" حتى القرن الثالث عشر الميلادي»، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم:** ٩٥-١١٢.

- «حول البداية التاريخية للعلم»، بناصر البعزاتي، ضمن: **التحقيب، التقليد، القطيعة، السيرورة**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٦١، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

- «خصائص الاستدلال في تناول مفهوم الواحد بين الرياضيات وعلم ما بعد الطبيعة»، عبد العزيز العثماني، ضمن: آليات الاستدلال في العلم.

■ «دور المنطق في بناء النظرية الفيزيائية»، عبد السلام بن ميس، مجلة **المناظرة**، السنة الثانية، العدد الخامس، ذو الحجة ١٤١٢ هـ/ يونيو ١٩٩٢ م: ٦٥-٨٣.

■ «في جوهر الفكر الفلسفي»، الطاهر واعزيز، مجلة **المناظرة**، السنة الأولى، العدد الأول، شوال ١٤٠٩هـ/ يونيو ١٩٨٩م.

■ «مصطلح اللفظ عند الأصوليين»، عبد الحميد العلمي، ضمن أعمال ندوة **الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية**.

■ «مفاصل التفاعل بين المعارف»، بناصر البعزاتي، مجلة **فكر ونقد**، العدد الأول، شتنبر ١٩٩٧ م.

■ «مفهوم الإبدال»، بناصر البعزاتي، ضمن: **المفاهيم تكونها وسيرورتها**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٧، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

■ «مفهوم التواصل: مظاهره ومحدداته في علم النفس الاجتماعي»، عبد الكريم بلحاج، ضمن: **المفاهيم وأشكال التواصل**.

■ «مفهوم الجدل بين الخصوبة والتعسف»، بناصر البعزاتي، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**، تنسيق: محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٧٦، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

■ «مفهوم اللاشعور: نماذج من انتقالاته في الفكر المعاصر»، عبد الرزاق الدواي، ضمن: **انتقال النظريات والمفاهيم**.

■ «ملاحظات حول إشكالية المصطلح اللغوي في الخلاف الكلامي»، عبد المجيد الصغيّر، مجلة **المناظرة**، العدد السابق **نفسه**: ٩٧-١١١.

■ «موجات فلسفية جديدة»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٨، الأربعاء ١٢ دجنبر ٢٠٠١.

■ «نحو خريطة مؤقتة للخطاب الفلسفي الجديد»، ضمن: «أسئلة الفكر الفلسفي بالمغرب»، جريدة **الاتحاد الاشتراكي المغربية**، عدد ٦٦٩٩، الخميس ١٣ دجنبر ٢٠٠١.

- ٥٠٢.
- **آليات الاستدلال في العلم**، تنسيق عبد السلام بن ميس، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٤، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- **التراث والتجديد**، حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م: ٩٣. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٠م عن المركز العربي للبحث والنشر.
- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، أيلول ١٩٩١م.
- **قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية**، جزآن، أعمال ندوة جامعة مكناس، إعداد عز الدين البوشيخي ومحمد الوادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، المغرب، سلسلة الندوات، رقم ١٢، ٢٠٠٠م.
- **المفاهيم وأشكال التواصل**، تنسيق: محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٩٢، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- **المفاهيم: تكونها وسيرورتها**، تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٨٧، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠م.
- **مقدمة ابن خلدون**، دار القلم، بيروت، لبنان، دون تاريخ: ٨٧٥.
- بنية العقل العربي، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

مركز نهوض
للدراسات والنشر
NOHOUDH CENTER
FOR STUDIES
AND PUBLICATIONS

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © ٢٠١٨